

الباب الأول

الحاجة إلى الدين

- معنى الدين .
- حاجة العقل والفطرة والنفس .
- حاجة المجتمع إلى بواعث وضوابط أخلاقية .
- العلم والفلسفة ليسا بديلين عن الدين .
- هل الدين أفيون الشعوب ؟

OBEIKAN.COM

الحاجة إلى الدين

● معنى الدين :

قبل أن نتحدث عن الحاجة إلى الدين عامة ، وإلى الإسلام خاصة ، ينبغي لنا أن نبين المعنى المراد بكلمة (الدين) .

ولا نريد أن نطيل الحديث في ذلك عند اللغويين وعند مؤرخي الأديان ، وفلاسفة الملل والنحل ، وندخل في الموضوع مباشرة .

وقد بحث ذلك شيخنا الدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه القيم (الدين) ثم خرج بالتعريف التالي للدين ، أى دين ، صحيح أو فاسد ، كتابى أو وثنى . قال رحمه الله :

الدين هو : « الاعتقاد بوجود ذات - أو ذات - غيبية علوية ، لها شعور واختيار ، ولها تصرف وتدبير للشؤون التى تعنى الإنسان ، اعتقاد من شأنه أن يبعث على مناجاة تلك الذات السامية فى رغبة ورهبة ، وفى خضوع وتمجيد » وبعبارة موجزة ، هو « الإيمان بذات إلهية ، جديرة بالطاعة والعبادة » . هذا إذا نظرنا إلى الدين من حيث هو حالة نفسية بمعنى التدين ، أما إذا نظرنا إليه من حيث هو حقيقة خارجة فنقول : « هو جملة النواميس النظرية التى تحدد صفات تلك القوة الإلهية ، وجملة القواعد العملية التى ترسم طريق عبادتها » (١) .

فهذا التعريف يشمل الدين من حيث هو ، ولو كان قائماً على الشرك والوثنية . ذلك أن القرآن سمّاه ديناً ، كما فى قوله تعالى : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينٍ ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ (٣) .

(١) الدين ص ٥٢ ، طبع دار القلم بالكويت .

(٢) الكافرون : ٦

(٣) آل عمران : ٨٥

وقد عرف علماء الإسلام الدين بأنه : « وضع إلهى سائق لذوى العقول
السليمة باختيارهم إلى ما فيه الصلاح فى الحال والفلاح فى المآل » .



● الأديان السماوية ووحدها :

ومن المعروف للدارسين أن الأديان نوعان :

١ - أديان سماوية أو كتابية ، على معنى أن لها كتاباً نزل من السماء ،
يحمل هداية الله للبشر ، مثل (اليهودية) التى أنزل الله فيها كتابه (التوراة)
على رسوله (موسى) عليه السلام . ومثل (النصرانية) التى أنزل الله فيها
كتابه (الإنجيل) على رسوله المسيح (عيسى) عليه السلام . ومثل (الإسلام)
الذين أنزل الله فيه (القرآن) على خاتم رُسُلِهِ وأنبياؤه (محمد) عليه الصلاة
والسلام .

وفرق ما بين الإسلام والأديان الكتابية الأخرى : أن الله تعالى حفظ أصول
الإسلام ومصادره بوصفه الرسالة الأخيرة للبشر ، فلم يصبها تحريف ولا تبديل ،
فى حين لم يحفظ مصادر الأديان الأخرى وكتبها المقدسة ، فحُرِفَتْ وبُذِلَتْ ،
أو ضاعت .

٢ - وأديان وثنية أو وضعية ، تنسب إلى الأرض لا السماء ، وإلى البشر
لا إلى الله مثل (البوذية) فى الصين واليابان ، و (الهندوسية) فى الهند ،
و (المجوسية) فى فارس قديماً ، وغيرها من الأديان فى آسيا وأفريقيا . فهى
إما من وضع البشر أساساً مثل البوذية ، وإما أن يكون لها كتاب فى الأصل
ثم ضاع ولم يبق له أثر ، كما فى المجوسية .

والأصل أن الأديان السماوية واحدة فى أصولها العقائدية ، وإن اختلفت
شرائعها باختلاف أزمنتها ، وهذا ما بينه القرآن وأكده : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِّنَ
الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ

وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴿١﴾ ، وقال تعالى :
﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ (٢) .

بل قرر القرآن أن دين الله واحد ، أنزل به جميع كتبه ، وبعث به جميع
رُسُلَه ، وهو (الإسلام) كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ
الْإِسْلَامُ ﴾ (٣) ، فكل رُسُل الله كانوا مسلمين ، ودعوا إلى الإسلام ،
﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا ، وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا ﴾ (٤) ،
﴿ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ : يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا
تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (٥) ، وموسى قال لقومه : ﴿ يَا قَوْمِ إِن كُنْتُمْ
أَمْتُمْ بِاللَّهِ فَلَعَلَّيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾ (٦) ، والحواريون أصحاب عيسى :
﴿ قَالُوا : آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (٧) .

ومحمد خاتم الرُّسُل بُعث بالإسلام - دين الرُّسُل جميعاً - مصداقاً لما بين
يديه - أى ما تقدمه - من الأديان ، ومؤكداً لما تضمنته كتبها من حقائق الدين ،
وقواعد السلوك ، كما جاء القرآن مهيمناً على تلك الكتب ، مصححاً لما
أصابها من تحريف لفظى أو معنى لكلمات الله فيها ، متمماً لمكارم الأخلاق
التي جاء بها رُسُل الله من قبل ، حتى تبلغ غايتها بعد أن بلغت البشرية
أشدّها ، واستكملت رشدّها .

يقول تعالى مخاطباً رسوله محمداً عليه الصلاة والسلام : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ
الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ، فَاحْكُمْ
بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ (٨) .

وسنبين فى هذا الباب حاجة الإنسان - فرداً ومجتمعاً - إلى الدين بصفة

(٣) آل عمران : ١٩

(٢) المائدة : ٤٨

(١) الشورى : ١٣

(٦) يونس : ٨٤

(٥) البقرة : ١٣٢

(٤) آل عمران : ٦٧

(٨) المائدة : ٤٨

(٧) آل عمران : ٥٢

عامة ، وإلى الأديان الكتابية بصفة خاصة ، وإلى الإسلام خاتمتها على وجه
أخص .



● حاجة الإنسان إلى الدين :

إن حاجة الإنسان إلى الدين عامة ، وإلى الإسلام خاصة ، ليست حاجة
ثانوية ولا هامشية ، إنها حاجة أساسية أصيلة ، تتصل بجوهر الحياة ، وسر
الوجود ، وأعمق أعماق الإنسان .

وفى أقصى ما يمكن من الإيجاز - غير المخل - نبين هنا وجه الحاجة إلى
الدين فى حياة الإنسان :

* حاجة العقل إلى معرفة الحقائق الكبرى فى الوجود :

١ - حاجة الإنسان إلى عقيدة دينية تنبثق - أول ما تنبثق - من حاجته إلى
معرفة نفسه ومعرفة الوجود الكبير من حوله ، أى إلى معرفة الجواب عن
الأسئلة التى شغلت بها فلسفات البشر ولم تقل فيها ما يشفى .

فالإنسان منذ نشأته تلح عليه أسئلة يحتاج إلى الجواب عنها : من أين ؟
وإلى أين ؟ ولم ؟ ! ومهما تشغله مطالب العيش عن هذا التساؤل ، فإنه لا بد
واقف يوماً ليسأل نفسه هذه الأسئلة الخالدة :

(أ) يقول الإنسان فى نفسه : من أين جئتُ وجاء هذا الكون العريض من
حولى ؟ هل وُجدتُ وحدى أم هناك خالق أوجدنى ؟ ومن هو ؟ وما صلتى
به ؟ وكذلك هذا العالم الكبير بأرضه وسماؤه ، وحيوانه ونباته وجماده
وأفلاكه ، هل وُجدَ وحده أم أوجده خالق مُدبّر ؟ (١) .

(ب) ثم ماذا بعد هذه الحياة . . . وبعد الموت ؟ إلى أين المسير بعد هذه

(١) الله يتجلى فى عصر العلم - ص ٥٢

الرحلة القصيرة على ظهر هذا الكوكب الأرضى ؟ أتكون قصة الحياة مجرد « أرحام تدفع ، وأرض تبلع » ولا شىء بعد ذلك ؟ وكيف تستوى نهاية الأخيار الطاهرين الذين ضحوا بأنفسهم فى سبيل الحق والخير ، ونهاية الأشرار الملوئين الذين ضحوا بغيرهم فى سبيل الهوى والشهوة ؟ أنتختم الحياة بالموت ؟ . . أم هناك وراء الموت حياة يجزى فيها الذين أساءوا بما عملوا والذين أحسنوا بالحسنى ؟

(ج) ثم لماذا وُجد الإنسان ؟ لماذا أُعطى العقل والإرادة وتميَّز عن سائر الحيوان ؟ لماذا سُخِّرَ له ما فى السموات وما فى الأرض ؟ أهناك غاية من وجوده ؟ أله مهمة فى حياته ؟ أم وُجد لمجرد أن يأكل كما تأكل الأنعام - ثم ينفق كما تنفق الدواب ؟ وإن كانت هناك غاية من وجوده فما هى ؟ وكيف يعرفها ؟

أسئلة تلح على الإنسان فى كل عصر وتتطلب الجواب الذى يشفى الغليل ويطمئن به القلب ، ولا سبيل إلى الجواب الشافى إلا باللجوء إلى الدين . . . إلى العقيدة الدينية الصافية . الدين هو الذى يعرف الإنسان - أول ما يعرفه - أنه لم يخرج من العدم إلى الوجود صدفة ، ولا قام فى هذا الكون وحده ، وإنما هو مخلوق لخالق عظيم ، هو ربه الذى خلقه فسوّاه فعدله ونفخ فيه من روحه ، وجعل له السمع والبصر والفؤاد ، وأمدّه بنعمه الغامرة ، منذ كان جنيناً فى بطن أمه : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ * فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ * فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴾ (١) .

وهذا الكون الكبير من حوله ليس غريباً عنه ولا عدواً له ، إنه مخلوق مثله لله لا يسير جزافاً ولا يمشى اعتباطاً ، كل شىء فيه بقدر ، وكل أمر فيه بحساب وميزان ، إنه نعمة من الله للإنسان ورحمة ، ينعم بخيراته ، ويستفيد

من بركاته ، ويتأمل فى آياته ، فيستدل به عن ربه : ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى *
وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ (١) ، ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ
الَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (٢) .

بهذه العقيدة يرتبط الإنسان بالوجود الكبير ، ويرب الوجود كله ، ولا يعيش
منطوياً على نفسه ، معزولاً عما حوله ، أو خائفاً منه .

والدين هو الذى يُعرِّف الإنسان : إلى أين يسير بعد الحياة والموت ؟ إنه
يعرفه أن الموت ليس فناءً محضاً ، ولا عدماً صرفاً ، إنما هو انتقال إلى مرحلة
أخرى . . إلى حياة برزخية بعدها نشأة أخرى توفى فيها كل نفس ما كسبت ،
وتخلد فيما عملت ، فلا يضيع هناك عمل عامل من ذكر أو أنثى ، ولا يفلت
من العدل الإلهى جبار أو مستكبر : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيرَوْا
أَعْمَالَهُمْ * فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا
يَرَهُ ﴾ (٢) بهذا يعيش الإنسان بوجدانه فى الخلود ، ويعلم أنه خلق للأبد ،
وإنما ينتقل بالموت من دار إلى دار .

والدين هو الذى يُعرِّف الإنسان : لماذا خُلِق ؟ ولماذا كُرِّم وفُضِّل ؟ يُعرِّفه
بغاية وجوده ، ومهمته فيه ، إنه لم يُخلق عبثاً ، ولم يُترك سدى ، إنه خُلِق
ليكون خليفة الله فى الأرض ، يعمرها كما أمر الله ، ويُسخرها لما يحب الله ،
يكشف عن مكنوناتها ، ويأكل من طيباتها ، غير طاغٍ على حق غيره ، ولا ناسٍ
حق ربه . وأول حقوق ربه عليه أن يعبد وحده ، ولا يُشرك به شيئاً ، وأن
يعبد بما شرع ، على السنة رُسُلُه ، الذين بعثهم إليه هداة معلمين ، مبشرين
ومنذرين ، فإذا أدَّى مهمته فى هذه الدار المحفوفة بالتكليف والابتلاء ، وجد
جزاءه هناك فى الدار الآخرة : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ
مُّحْضَرًا ﴾ (٤) .

(٢) آل عمران : ١٩٠

(٤) آل عمران : ٣٠

(١) الأعلى : ٢ - ٣

(٣) الزلزلة : ٦ - ٨

بهذا يدرك الإنسان سر وجوده ، ويستبين مهمته فى الحياة ، بينها له بارىء الكون ، وواهب الحياة ، وخالق الإنسان .

إن الذى يعيش بغير دين - بغير عقيدة فى الله والآخرة - إنسان شقى محروم حقاً . إنه فى نظر نفسه مخلوق حيوانى ، ولا يفترق عن الحيوانات الكبيرة التى تدب على الأرض من حوله والتى تعيش وتتمتع ثم تموت وتنفق ، بدون أن تعرف لها هدفاً ، أو تدرك لحياتها سراً ، إنه مخلوق صغير تافه لا وزن له ولا قيمة ، وُجِدَ ولا يعرف : كيف وُجِدَ ، ولا مَنْ أوجده ؟ ويعيش ولا يدرى : لماذا يعيش ؟ ويموت ولا يعلم لماذا يموت ؟ وماذا بعد الموت ؟ إنه فى شك - بل فى عمى - من أمره كله : محياه ومماته ، مبدئه ومنتهاه ، كالذين قال الله فيهم : ﴿ بَلْ أَدَارِكْ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ ، بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا ، بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴾ (١) .

وما أقسى حياة إنسان يعيش فى جحيم الشك والخيرة أو فى ظلمات العمى والجهل ، فى أحص ما يخصه : فى حقيقة نفسه ، وسر وجوده ، وغاية حياته . إنه الشقى التعيس حقاً ، وإن غرق فى الذهب والحريير وأسباب الرفاهية والنعيم ، وحمل أرقى الشهادات ، وتسلم أعلى الدرجات ! وفرق كبير بين إنسان كعمر الخيام يقول فى حال حيرته وشكه :

لبستُ ثوب العمر لم أستشر وحرْتُ فيه بين شتَّى الفكر !

وسوف أنضو الثوب عنى ، ولم أدر : لماذا جئتُ ، أين المفر ؟

وبين آخر يقول فى يقين وطمأنينة :

وما الموت إلا رحلة ، غير أنها من المنزل الفانى إلى المنزل الباقي !

ويقول عمر بن عبد العزيز : « إِنَّا خُلِقْنَا لِلْأَبَدِ ، وَإِنَّمَا نَنْقُلُ مِنْ دَارٍ إِلَى

دار » .

إن حاجة الإنسان إلى الدين تنبثق - قبل كل شيء - من حاجته إلى معرفة حقيقة نفسه وإلى معرفة حقائق الوجود الكبرى ، وأول هذه الحقائق وأعظمها : وجود الله تعالى ووحدانيته وكماله سبحانه ، فبمعرفة والإيمان به - جلَّ شأنه - تنحل عقد الوجود ، ويتضح للإنسان الغاية والوجهة ، ويتحدد المنهج والطريق .



* حاجة الفطرة البشرية :

٢ - ما ذكرناه من حاجة الإنسان إلى الدين يتصل بحاجاته العقلية ، ولكن هناك حاجة الوجدان والشعور أيضاً ، فالإنسان ليس عقلاً فقط ، كالأدمغة الألكترونية ، إنما هو عقل ووجدان وروح ، هكذا تكونت فطرته ، ونطقت جبلته . فالإنسان بفطرته لا يقنعه علم ولا ثقافة ، ولا يُشبع نهمته فن ولا أدب ، ولا يملأ فراغ نفسه زينة أو متعة ، ويظل قلق النفس ، جوعان الروح ، ظمآن الفطرة ، وشاعراً بالفراغ والنقص ، حتى يجد العقيدة في الله ، فيطمئن بعد قلق ، ويسكن بعد اضطراب ، ويأمن بعد خوف ، ويحس بأنه وجد نفسه .

يقول الفيلسوف « أجوست سياتيه » في كتابه « فلسفة الأديان » (١) :

« لماذا أنا متدين ؟ إنني لم أحرّك شفتي بهذا السؤال مرة ، إلا وأراني مسوقاً للإجابة عليه بهذا الجواب ، وهو : أنا متدين ، لأنني لا أستطيع خلاف ذلك ، لأن التدين لازم معنوي من لوازم ذاتي . يقولون لي : ذلك أثر من آثار الوراثة أو التربية أو المزاج ، فأقول لهم : قد اعترضت على نفسي كثيراً بهذا الاعتراض نفسه ، ولكنني وجدته يقهقر المسألة ولا يحلها » .

ولا عجب أن وجدنا هذه العقيدة عند كل الأمم ، بدائية ومتحضرة ، وفي

(١) الإسلام في عصر العلم ، للمرحوم محمد فريد جدى .

كل القارات شرقية وغربية ، وفي كل العصور قديمة وحديثة ، وإن كان الأكثرون قد انحرفوا بها عن الصراط المستقيم .

يقول المؤرخ الإغريقي « بلوتارك » : قد وُجِدَت في التاريخ مدن بلا حصون ، ومدن بلا قصور ، ومدن بلا مدارس ، ولكن لم توجد أبداً مدن بلا معابد

ولهذا جعل القرآن الدين - بمعنى العقيدة - هو الفطرة البشرية نفسها : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً ، فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ (١) .



* حاجة الإنسان إلى الصحة النفسية والقوة الروحية :

٣ - وثمت حاجة أخرى إلى الدين : حاجة تقتضيها حياة الإنسان وآماله فيها ، وآلامه بها . . . حاجة الإنسان إلى ركن شديد يأوى إليه ، وإلى سناد متين يعتمد عليه ، إذا أَلَمَّتْ به الشدايد ، وحَلَّتْ بساحته الكوارث ، ففقد ما يحب ، أو واجه ما يكره ، أو خاب ما يرجو ، أو وقع به ما يخاف ، هنا تأتي العقيدة الدينية ، فتمنحه القوة عند الضعف ، والأمل في ساعة اليأس ، والرجاء في لحظة الخوف ، والصبر في البأساء والضراء ، وحين البأس .

إن العقيدة في الله وفي عدله ورحمته ، وفي العوض والجزاء عنده في دار الخلود ، تهب الإنسان الصحة النفسية والقوة الروحية ، فتشع في كيانه البهجة ، ويغمر روحه التفاؤل ، وتتسع في عينه دائرة الوجود ، وينظر إلى الحياة بمنظار مشرق ، ويهون عليه ما يلقي وما يكابد في حياته القصيرة الفانية ، ويجد من العزاء والرجاء والسكينة ما لا يقوم مقامه ولا يُغْنِي عنه علم ولا فلسفة ولا مال ولا ولد ولا مُلْكُ المشرق والمغرب .

ورضى الله عن عمر إذ قال : « ما أصبتُ بمصيبة إلا كان الله علىّ فيها أربع نَعَم : أنها لم تكن فى دينى ... وأنها لم تكن أكبر منها ... وأنى لم أحرَم الرضا عند نزولها ... وأنى أرجو ثواب الله عليها » (١) .

أما الذى يعيش فى دنياء بغير دين ، بغير إيمان ، يرجع إليه فى أموره كلها - وبخاصة إذا ادلهمت الخطوب ، وتتابعَت الكروب ، والتبست على الناس المسالك والدروب - يستفتيه فيفتيه ، ويسأله فيجيبه ، ويستعينه فيعينه ، ويمنحه المدد الذى لا يغلب ، والعون الذى لا ينقطع - الذى يعيش بغير هذا الإيمان - يعيش مضطرب النفس ، متحير الفكر ، مبلبل الاتجاه ، ممزق الكيان ، شَبَّه بعض فلاسفة الأخلاق بحال « راقايك » التعس ، الذى يحكون عنه أنه اغتال الملك ، فكان جزاؤه أن يُربط من يديه ورجليه إلى أربعة من الجياد ، ثم ألهب ظهر كل منها ، لتتجه مسرعة ، كل واحد منها إلى جهة من الجهات الأربع ، حتى مُزَّق جسمه شر مُمَزَّق !

هذا التمزق الجسمى البشع مثل للتمزق النفسى الذى يعانیه مَنْ يحيا بغير دين ، ولعل الثانى أقسى من الأول وأنكى فى نظر العارفين المتعمقين ، لأنه تمزق لا ينتهى أثره فى لحظات ، بل هو عذاب يطول مداه ، ويلازم مَنْ نُكِب به طول الحياة .

ولهذا نرى الذين يعيشون بغير عقيدة راسخة يتعرضون أكثر من غيرهم للقلق النفسى ، والتوتر العصبى ، والاضطراب الذهنى ، وهم ينهارون بسرعة إذا صدمتهم نكبات الحياة ، فإما انتحروا انتحاراً سريعاً ، وإما عاشوا مرضى النفوس ، أمواتاً كالأحياء ! على نحو ما قال الشاعر العربى قديماً :

ليس مَنْ مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء !

إنما الميت من يعيش كئيماً كاسفاً باله قليل الرجاء !

(١) انظر موضوع « الثبات فى الشدائد » من كتابنا « الإيمان والحياة » ، وكذلك موضوع « القوة » - طبع - مؤسسة الرسالة ببيروت ، ومكتبة وهبة بالقاهرة .

وهذا ما يقرره علماء النفس وأطباء العلاج النفسى فى العصر الحديث .
وهو ما سجّله المفكرون والنقاد فى العالم كله .

يقول المؤرخ الفيلسوف « آرنولد توينبى » :

« الدين إحدى الملّكات الضرورية الطبيعية البشريّة ، وحسبنا القول بأن
افتقار المرء للدين يدفعه إلى حالة من اليأس الروحى ، تضطره إلى التماس
العزاء الدينى على موائد لا تملك منه شيئاً » (١) .

ويقول الدكتور « كارل بانج » فى كتابه « الإنسان العصرى يبحث عن
نفسه » : « إن كل المرضى الذين استشارونى خلال الثلاثين سنة الماضية ، من
كل أنحاء العالم ، كان سبب مرضهم هو نقص إيمانهم ، وتزعزع عقائدهم ،
ولم ينالوا الشفاء إلا بعد أن استعادوا إيمانهم » (٢) .

ويقول « وليم جيمس » فيلسوف المنفعة والذرائع : « إن أعظم علاج للقلق
- ولا شك - هو الإيمان » .

ويقول الدكتور « بريال » : « إن المرء المتدين حقاً لا يعانى قط مرضاً نفسياً » .
ويقول « ديل كارنيجى » فى كتابه « دع القلق وابدأ الحياة » : « إن أطباء
النفس يدركون أن الإيمان القوى والاستمسك بالدين ، كفيلاً بأن يقهرا القلق ،
والتوتر العصبى ، وأن يشفيا من هذه الأمراض » .

وقد أفاض الدكتور « هنرى لنك » فى كتابه « العودة إلى الإيمان » فى بيان
ذلك والتدليل عليه بما لمسه وجربّه من وقائع وفيرة ، خلال عمله فى العلاج
النفسى (٣) .



(١) مختصر دراسة التاريخ : ١٧٩/٣

(٢) انظر : كتاب الإسلام يتحدى ، ص ٢٨١

(٣) انظر : فصل « بين العلم والإيمان » من كتابنا « الإيمان والحياة » وبخاصة
ما كُتب تحت عنوان : « الطب النفسى فى موكب الإيمان » .

* حاجة المجتمع إلى بواعث وضوابط أخلاقية :

٤ - وهناك حاجة أخرى إلى الدين : حاجة اجتماعية ، إنها حاجة المجتمع إلى بواعث وضوابط : بواعث تدفع أفرادَه إلى عمل الخير ، وأداء الواجب وإن لم يوجد من البشر من يراقبهم ، أو يكافئهم . . وضوابط تحكم علاقاتهم ، وتُلزم كل واحد منهم أن يقف عند حده ، ولا يعتدى على حق غيره أو يُفِرط في خير مجتمعه ، من أجل شهوات نفسه ، أو منفعة المادية العاجلة .

ولا يقال : إن القوانين واللوائح كافية لإيجاد هذه الضوابط وتلك البواعث ، فإن القوانين لا تخلق باعثاً ، ولا تكفى ضابطاً ، فإن الإفلات منها ممكن ، والاحتياال عليها ميسور ، ولهذا كان لا بد من بواعث وضوابط أخلاقية ، تعمل من داخل النفس الإنسانية لا من خارجها . لا بد من هذا الباعث الداخلى ، ومن هذا : الوازع الذاتى ، لا بد من الضمير ، أو « الوجدان » أو « القلب » - سمه ما شئت - فهو القوة التى إذا صلحت صلح عمل الإنسان كله ، وإذا فسدت فسد كله .

ولقد عرف الناس بالمشاهدة والتجربة واستقراء التاريخ ، أن العقيدة الدينية لا يغنى غناءها شىء فى تربية الضمير وتركبة الأخلاق ، وتكوين البواعث التى تحفز على الخير ، والضوابط التى تردع عن الشر ، حتى قال بعض قضاة العصر فى بريطانيا - وقد هاله ما رأى من جرائم موبقة ، رغم تقدم العلم ، واتساع الثقافة ، ودقة القوانين : « بدون أخلاق لا يوجد قانون ، وبدون إيمان لا توجد أخلاق » (١) .

ولا غرو أن اعترف بعض الملاحدة أنفسهم بأن الحياة لا تستقيم بدون دين ، بدون عقيدة فى الله وفى الجزاء فى الآخرة ، حتى قال « فولتير » : « لو لم يكن الله موجوداً لوجب علينا أن نخلقه » ! أى نخترع للناس إلهاً يرجون

(١) انظر : فصل « الإيمان والأخلاق » من كتابنا : « الإيمان والحياة » طبع مؤسسة الرسالة ببيروت ومكتبة وهبة بالقاهرة .

رحمته ويخافون عذابه ، ويلتمسون رضاءه فيعملون الصالحات ، ويتجنبون السيئات ، ويقول مرة أخرى ساخراً : « لِمَ تشككون فى وجود الله ، ولولاه لخانتنى زوجتى ، وسرقنى خادمى » !!

وقال « بلوتارخ » : « إن مدينة بلا أرض تقوم عليها ، أسهل من قيام دولة بلا إله » !!



* حاجة المجتمع إلى التعاون والتماسك :

٥ - ثم إن للدين دوراً كبير الأهمية فى توثيق الصلة بين الناس بعضهم وبعض ، باعتبارهم جميعاً عبيداً لرب واحد خلقتهم ، وأبناء لأب واحد نسلهم ، فضلاً عما ينشئه الدين بينهم من أخوة العقيدة ، وأصرة الإيمان .

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ ^(١) وما تحدّثه هذه الأخوة الدينية من آثار فى الأنفس والحياة ، حتى نجد أحدهم يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، بل يؤثر أخاه على نفسه ، ولو كان به خصاصة .

يقول شيخنا الدكتور محمد عبد الله دراز ، فى كتابه القيم (الدين) :

لا حاجة بنا إلى التنبيه على أن الحياة فى الجماعة لا قيام لها إلا بـ « التعاون » بين أعضائها ، وأن هذا التعاون إنما يتم « بقانون » ينظم علاقاته ، ويحدد حقوقه وواجباته ، وأن هذا القانون لا غنى له عن « سلطان » نازع وازع ، يكفل مهابته فى النفوس ويمنع انتهاك حرماته .

تلك كلها مبادئ مقررة ، والحديث فيها معاد مملول .

وإنما الشأن كل الشأن فى هذا السلطان النازع الوازع : ما هو ؟

فالذى نريد أن نثبته فى هذه الحلقة من البحث هو أنه ليس على وجه

(١) الحجرات : ١٠

الأرض قوة تكافئ قوة الدين أو تدانيتها فى كفالة احترام القانون ، وضمان تماسك المجتمع واستقرار نظامه ، والتثام أسباب الراحة والطمأنينة فيه .

السر فى ذلك أن الإنسان يمتاز عن سائر الكائنات الحية بأن حركاته وتصرفاته الاختيارية يتولى قيادتها شىء لا يقع عليه سمعه ولا بصره ، ولا يوضع فى يده ولا عنقه ، ولا يجرى فى دمه ، ولا يسرى فى عضلاته وأعصابه ، وإنما هو معنى إنسانى روحانى ، اسمه الفكرة والعقيدة ، فالإنسان أبداً أسير هذه الفكرة والعقيدة .

ولقد ضل قوم قلبوا هذا الوضع وحسبوا أن الفكر والضمير لا يؤثران فى الحياة المادية والاقتصادية ، بل يتأثران بها ، هذا الرأى الماركسى هو قبل كل شىء نزول بالإنسان عن عرش كرامته ، ورجوع به القهقرى إلى مستوى البهيمية ، ثم هو تصوير مقلوب للحقائق الثابتة المشاهدة فى سلوك الأفراد والجماعات فى كل عصر ؛ فلكى يختار الناس أن يحيا حياة مادية لا نصيب فيها للقلب ولا للروح ، لا بد أن يقنعوا أنفسهم بادئ ذى بدء بأن سعادتهم هى فى هذا النوع من الحياة . فالإنسان مقود أبداً بفكرة : صحيحة أو فاسدة ، فإذا صلحت عقيدته صلح فيه كل شىء ؛ وإن فسدت فسد كل شىء .

أجل إن الإنسان يساق من باطنه لا من ظاهره ، وليست قوانين الجماعات ولا سلطان الحكومات بكافيين وحدهما لإقامة مدينة فاضلة تحترم فيها الحقوق ، وتؤدى الواجبات على وجهها الكامل ؛ فإن الذى يؤدى واجبه رهبة من السوط أو السجن أو العقوبة المالية ، لا يلبث أن يهمله متى اطمأن إلى أنه سيفلت من طائلة القانون .

ومن الخطأ البين أن نظن أن فى نشر العلوم والثقافات وحدها ضماناً للسلام والرخاء ، وعوضاً عن التربية والتهديب الدينى والخلقى ؛ ذلك أن العلم سلاح ذو حدين : يصلح للهدم والتدمير ، كما يصلح للبناء والتعمير ؛ ولا بد

فى حسن استخدامه من رقيب أخلاقى يوجهه لخير الإنسانية وعمارة الأرض ،
لا إلى نشر الشر والفساد .

ذلكم الرقيب هو العقيدة والإيمان (١) .

كلام الإمام محمد عبده :

وقد بين الأستاذ الإمام محمد عبده فى كتابه الفريد « رسالة التوحيد »
وجوه حاجة البشر إلى النبوة والرسالة الإلهية ، وأنها للنوع الإنسانى بمثابة
العقل للفرد الإنسانى ، وأن البشر لا يستغنون عن هداية الله لهم بحال ، لهذا
أرسل إليهم الرُّسل مبشرين ومنذرين : ﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ (٢) ،
ولقد أكد هذا فى تفسيره لسورة الفاتحة وبيان حاجة الناس إلى هدى الله
سبحانه عند آية : ﴿ إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (٣) كما نقله صاحب المنار
رحمهما الله جميعاً .

وعاد إلى ذلك فى تفسير قوله تعالى من سورة النساء عقب بيان أحكام
المواريث : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ، وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ
تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ... ﴾ (٤) فقال رحمه الله :

« طاعة الرسول هى طاعة الله بعينها لأنه إنما يأمرنا بما يوحىه إليه الله من
مصلحتنا التى فيها سعادتنا فى الدنيا والآخرة ، وإنما يذكر طاعة الرسول مع
طاعة الله لأن من الناس من كانوا يعتقدون قبل اليهودية وبعدها ، وكذلك بعد
الإسلام إلى اليوم : أن الإنسان يمكن أن يستغنى بعقله وعلمه عن الوحي ،
يقول أحدهم : إننى أعتقد أن للعالم صانعاً عليمًا حكيمًا ، وأعمل بعد ذلك
بما يصل إليه عقلى من الخير واجتناب الشر . وهذا خطأ من الإنسان ، ولو
صح ذلك لما كان فى حاجة إلى الرُّسل ، وقد تقدم فى تفسير سورة الفاتحة :

(١) الدين لشيخنا الدكتور دراز ، ص ٩٨ ، ٩٩

(٢) فاطر : ٢٤

(٣) الفاتحة : ٦

(٤) النساء : ١٣

أن الإنسان محتاج بطبيعته النوعية إلى هداية الدين ، وأنها هى الهداية الرابعة التى وهبها الله للإنسان بعد هداية الخواص والوجدان والعقل ، فلم يكن العقل فى عصر من عصوره كافياً لهداية أمة من أممه ومريقاً له بدون معونة الدين .

اعتراض من الملحدين وجوابه :

وقد عقب العلامة السيد رشيد رضا فى تفسير المنار على كلام الشيخ عبده بإيراد اعتراض من المرتابين والملاحدة وأجاب عنه إجابة مطولة ، فقال رحمه الله :
« يرد على هذا من جانب المرتابين والملاحدة : إننا نرى كثيراً من أفراد الناس لا يدينون بدين ، وهم فى درجة عالية من الأفكار والآداب ، وحسن الأعمال التى تنفعهم وتنفع الناس ، حتى أن العاقل المجرد عن التعصب الدينى يتمنى لو كان الناس كلهم مثله ، بل يسعى كثير من الفلاسفة لجعل الأمم مثل هؤلاء الأفراد فى آدابهم وارتقائهم .

وأجيب عن هذا (أولاً) : بأن الكلام فى هداية الجماعات من البشر ، كالشعوب والقبائل والأمم الذين يتحقق بارتقائهم معنى الإنسانية فى الحياة الاجتماعية ، سواء كانت بدوية أو مدنية ، وقد علمنا التاريخ أنه لم تقم مدنية فى الأرض من المدينيات التى وعها وعرفها إلا على أساس الدين ، حتى مدينيات الأمم الوثنية كقدماء المصريين والكلدان واليونانيين ، وعلمنا القرآن أنه ما من أمة إلا وقد خلا فيها نذير مرسل من الله عز وجل لهدايتها .
فنحن بهذا نرى أن تلك الديانات الوثنية كان لها أصل إلهى ، ثم سرت الوثنية إلى أهلها حتى غلبت على أصلها ، كما سرت إلى من بعدهم من أهل الديانات ، التى بقى أصلها كله أو بعضه على سبيل القطع ، أو على سبيل الظن . وليس للبشر ديانة يحفظ التاريخ أصلها حفظاً تاماً إلا الديانة الإسلامية ، وهو مع ذلك قد دون فى أسفاره كيفية سريان الوثنية الجلية أو الخفية إلى كثير من المنتسبين إليها كالنصيرية ، وسائر الباطنية وغيرهم ، ممن غلب

عليهم التأويل أو الجهل ، حتى إنه يوجد فى هذا العصر من المنتمين إلى الإسلام من لا يعرفون من أحكامه الظاهرة غير قليل مما يخالفون به جيرانهم ، كجواز أكل لحم البقر فى الأطراف الشاسعة من الهند ! وكيفية الزواج ودفن الموتى فى بعض بلاد روسيا وغيرها !! فمن علم هذا لا يستبعد تحول الديانات الإلهية القديمة إلى الوثنية .

فاتباع الرُّسل وهداية الدين أساس كل مدينة ، لأن الارتقاء المعنوى هو الذى يبعث على الارتقاء المادى . وها نحن أولاء نقرأ فى كلام شيخ الفلاسفة الاجتماعيين فى هذا العصر « هربرت سبنسر » أن آداب الأمم وفضائلها التى هى قوام مدنيّتها مستندة كلها إلى الدين ، وقائمة على أساسه ، وأن بعض العلماء يحاولون تحويلها عن أساس الدين وبناءها على أساس العلم والعقل ، وأن الأمم التى يجرى فيها هذا التحويل ، لا بد أن تقع فى طور التحويل فى فوضى أدبية ، لا تعرف عاقبتها ولا يحدد ضررها . هذا معنى كلامه فى بعض كتبه . وقد قال هو للأستاذ الإمام فى حديث له معه : إن الفضيلة قد اعتلت فى الأمة الإنكليزية وضعفت فى هذه السنين الأخيرة ، من حيث قوى فيها الطمع المادى .

ونحن نعلم أن الأمة الإنكليزية من أشد أمم أوروبا تمسكاً بالدين ، مع كون مدنيّتها أثبت ، وتقدمها أعم ، لأن الدين قوام المدنية بما فيه من روح الفضائل والآداب ، على أن المدنية الأوروبية بعيدة عن روح الديانة المسيحية ، وهو الزهد فى المال والسلطان وزينة الدنيا ، فلولا غلبة بعض آداب الإنجيل على تلك الأمم لأسرفوا فى مدنيّتهم المادية إسرافاً غير مقترن بشئ من البر وعمل الخير ، وإذا لبادت مدنيّتهم سريعاً . ومن يقل : إنه سيكون أبعداها عن الدين أقربها إلى السقوط والهلاك لا يكون مفتاتاً فى الحكم ، ولا بعيداً عن قواعد علم الاجتماع فيه .

فحاصل هذا الجواب الأول عن ذلك الإيراد : أن وجود أفراد من الفضلاء

غير المتدينين لا ينقض ما قاله الأستاذ الإمام من كون الدين هو الهداية الرابعة لنوع الإنسان التي تسوقه إلى كماله المدني في الدنيا ، كما تسوقه إلى سعادة الآخرة .

وثانياً : إنه لا يمكن الجزم بأن فلاناً الملحد الذي تراه على الأفكار والآداب قد نشأ على الإلحاد وتربى عليه من صغره ، حتى يقال : إنه قد استغنى في ذلك عن الدين ؛ لأننا لا نعرف أمة من الأمم تربى أولادها على الإلحاد ، وإننا نعرف بعض هؤلاء الملحدون الذين يعدون في مقدمة المرتقين بين قومهم ، ونعلم أنهم كانوا في نشأتهم الأولى من أشد الناس تديناً واتباعاً لآداب دينهم وفضائله ، ثم طرأ عليهم الإلحاد في الكبر ، بعد الخوض في الفلسفة التي تناقض بعض أصول ذلك الدين الذي نشأوا عليه ، والفلسفة قد تغير بعض عقائد الإنسان ، وآرائه ، ولكن لا يوجد فيها ما يقبح له الفضائل والآداب الدينية ، أو يذهب بملكاته وأخلاقه الراسخة كلها ، وإنما يسطو الإلحاد على بعض آداب الدين كالقناعة بالمال الحلال ، فيزين لصاحبه أن يستكثر من المال ولو من الحرام ، كأكل حقوق الناس والقمار بشرط أن يتقى ما يجعله حقيراً بين من يعيش معهم ، أو يلقيه في السجن ، وكالعفة في الشهوات ، فيبيح له من الفواحش ما لا يخل بالشرط المذكور آنفاً ، هذا إذا كان راقياً في أفكاره وآدابه ، وأما غير الراقين منهم فهم الذين لا يصددهم عن الفساد في الأرض وإهلاك الحرث والنسل إلا القوة القاهرة .

ولولا أن دول أوروبا قد نظمت فرق المحافظين على الحقوق من الشحنة والشرطة (البوليس والضابطة) أتم تنظيم ، وجعلت الجيوش المنظمة عوناً لهم عند الحاجة ، لما حفظ لأحد عندها عرض ولا مال ؛ ولعمت بلادها الفوضى والاختلال ، ولقد كانت الحقوق والأعراض محفوظة في الأمم من غير وجود هذه القوى المنظمة أيام كان الدين مرعياً في الآداب والأحكام - فتبين بهذا أن طاعة الله ورُسُلَه لا بد منها لسعادة الدنيا » (١) .



(١) من تفسير المنار : ج٤/٤٢٨ - ٤٣١

● شهادة التاريخ والواقع :

إن تجارب التاريخ وتجارب الواقع كلها تنطق بأصالة الإيمان فى الحياة ، وضرورته للإنسان ، فهو ضرورة للفرد ليطمئن ويسعد ويزكو ، وهو ضرورة للمجتمع ليستقر ويتماسك ويرقى .

يقول الأستاذ العقاد : « إن تجارب التاريخ تقرر لنا أصالة الدين فى جميع حركات التاريخ الكبرى ، ولا تسمح لأحد أن يزعم أن العقيدة الدينية شىء تستطيع الجماعة أن تلغيه ، ويستطيع الفرد أن يستغنى عنه ، فى علاقته بتلك الجماعة ، أو فيما بينه وبين سريره المطوية من حوله ، ولو كانوا من أقرب الناس إليه .

» ويكرر لنا التاريخ أنه لم يكن قط لعامل من عوامل الحركات الإنسانية أثر أقوى وأعظم من عامل الدين ، وكل ما عداه من العوامل الأخرى فى حركات الأمم ، فإنها تتفاوت فيه القوة بمقدار ما بينه وبين العقيدة الدينية من المشابهة فى التمكن من أصالة الشعور وبواطن السريرة .

» هذه القوة لا تضارعها قوة العصبية ولا قوة الوطنية ولا قوة العُرف ، ولا قوة الأخلاق ، ولا قوة الشرائع والقوانين ، إذ كانت هذه القوة إنما ترتبط بالعلاقة بين المرء ووطنه ، أو العلاقة بينه وبين مجتمعه ، أو العلاقة بينه وبين نوعه ، على تعدد الأوطان والأقوام .

» أما الدين فمرجعه إلى العلاقة بين المرء وبين الوجود بأسره ، وميدانه يتسع لكل ما فى الوجود من ظاهر وباطن ، ومن علانية وسر ، ومن ماضٍ أو مصير ، إلى غير نهاية ، بين آزال لا تُحصى فى القَدَم ، وآباد لا تُحصى فيما ينكشف عنه عالم الغيوب . وهذا على الأقل هو ميدان العقيدة الدينية فى مثلها الأعلى ، وغاياتها القصوى ، وإن لم تستوعبها ضمائر المتدينين فى جميع العصور .

» ومن أدلة الواقع على أصالة الدين : أنك تلمس هذه الأصالة عند المقابلة

بين الجماعة المتدينة ، والجماعة التى لا دين لها ، أو لا تعتصم من الدين بركن مكين .

« وكذلك تلمس هذه الأصالة عند المقابلة بين فرد يؤمن بعقيدة من العقائد الشاملة ، وفرد معطل الضمير ، مضطرب الشعور ، يمضى فى الحياة بغير محور يلوذ به ، وبغير رجاء يسمو إليه .

» لهذا . . الفارق بين الجماعتين ، وبين الفردين ، كالفارق بين شجرة راسخة فى منبتها وشجرة مجتثة من أصولها !

« وَقَلَّ أَنْ تَرَى إِنْسَانًا مُعْطَلُ الضَّمِيرِ ، عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْقُوَّةِ وَالْعِظْمَةِ ، إِلَّا أَمَكْنَكَ أَنْ تَتَخِيلَهُ أَقْوَى مِنْ ذَلِكَ وَأَعْظَمَ ، إِذَا حَلَّتْ الْعَقِيدَةُ فِي وَجْدَانِهِ مَحَلَّ التَّعْطَلِ وَالْحِيرَةِ » (١) .



● لا بديل عن الدين :

ومن الناس مَنْ يتصور إمكان الاستغناء عن الدين بالعلم الحديث حيناً ، أو المذاهب الفكرية « الأيديولوجيات » الحديثة حيناً آخر . وكلا التصورين خطأ .

فقد بينَ الواقعُ الناطقُ أنه لا شيء يغنى عن الدين ، ويقوم بديلاً عنه فى أداء رسالته الضخمة فى حياة الإنسان .

* العلم ليس بديلاً عن الدين :

أما العلم فليس بديلاً عن الدين والإيمان بحال . فإن مجال العلم غير مجال الدين . وأريد بـ « العلم » هنا العلم بمفهومه الغربى المحدود ، لا بمفهومه الإسلامى الشامل - الذى يشمل العلم بالظواهر الجزئية للكون ، والعلم

(١) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ص ١٥ - ١٦

بحقائق الوجود الكبرى - أى ما يشمل علم الدنيا ، وعلم الدين . فليس هو علم المادة وخواصها فحسب ، بل العلم المتعلق بالكون والحياة والإنسان ، وخالقها سبحانه .

العلم بالمفهوم الغربى لا يصلح بديلاً عن الدين ، لأن مهمة هذا العلم أن يُيسّر للإنسان أسباب الحياة ، لا أن يفسّر له ألغازها . العلم يعين الإنسان على حل مشكلة العيش ، ولكن لا يعينه على حل مشكلة الوجود وقضاياه الكبرى .

ولهذا نرى أعظم البلاد فى عصرنا تقدماً فى العلم ، وأخذاً بأسبابه ، يشكو أهلها من الفراغ الروحى ، والقلق النفسى ، والاضطراب الفكرى ، والشعور الدائم بالتفاهة والاكتئاب والضياع . ونرى شبابها ينقلبون بين شتى البدع الفكرية والسلوكية ، ثائرين على آلية الحياة ، ومادية الحضارة ، وإن لم يهتدوا إلى المنهج السليم ، والصراط المستقيم .

وهذا هو سر العوج والشذوذ والانحرافات ، التى لمسها العالم كله فى سلوك أولئك الشباب الحائرين ، الذين يسمونهم « الخنافس » أو « الهيبين » وأشباههم ممن ضاق ذرعهم بتفاهة العيش ، وتمردوا على حضارة الغرب وإن نشأوا بين أحضانها .

إن العلم الحديث محدود الوسع ، محدود القدرة ، محدود المجال .

فى وسع العلم أن يمنح الإنسان الوسائل والآلات ، ولكن ليس فى وسعه ولا من اختصاصه أن يمنحه الأهداف والغايات ، وما أتعس الإنسان إذا تكدّست لديه الوسائل دون أن يعرف لنفسه هدفاً ولا لحياته قيمة ، إلا أهداف السباع فى العدوان ، أو أهداف البهائم فى الأكل والسيفاد . أما هدف رفيع يليق بمواهب الإنسان ، وخصائص الإنسان ، وكرامة الإنسان ، فلا .

إن الدين وحده هو الذى يمنح الإنسان أهدافاً عليا للحياة وغايات كبرى للوجود ، ويجعل له فيه مهمة ورسالة ، ولحياته قيمة واعتباراً ، كما يمنحه

القيَم الخُلُقِيَّة والمُثُل العُلَيَا الَّتِي تَحْبِسُهُ عَنِ الشَّرِّ ، وَتَحْفَظُهُ عَلَى الْخَيْرِ ، لَغَيْرِ
مَنْفَعَةٍ مَادِيَّةٍ عَاجِلَةٍ .

لَقَدْ قَوَّى الْعِلْمُ الْجَانِبَ الْمَادِي فِي الْإِنْسَانِ إِلَى أْبْعَدِ حَدٍّ ، وَلَكِنَّهُ أَوْضَعُفَ
الْجَانِبَ الرُّوحِي فِيهِ إِلَى أَدْنَى مَسْتَوًى .

فَقَدْ أُعْطِيَ الْعِلْمُ الْإِنْسَانَ جَنَاحِي طَائِرٍ فَحَلَّقَ فِي الْفَضَاءِ ، وَأَعْطَاهُ خِيَاشِيمَ
حَوْتٍ فَغَاصَ فِي أَعْمَاقِ الْمَاءِ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يُعْطِهِ قَلْبَ إِنْسَانٍ !

وَحِينَ يَعْيشُ الْإِنْسَانُ فِي الْحَيَاةِ بِغَيْرِ « قَلْبِ الْإِنْسَانِ » تَسْتَحِيلُ أَدَوَاتُ الْعِلْمِ
فِي يَدَيْهِ إِلَى مَخَالِبٍ وَأَنْيَابٍ تَقْتُلُ وَتُرْهِبُ ، وَإِلَى مَعَاوِلٍ وَأَلْغَامٍ تَنْسِفُ وَتُدمِّرُ .

تَسْتَحِيلُ أَدَوَاتُ الْعِلْمِ إِلَى أَسْلِحَةٍ نَوَوِيَّةٍ ، وَقَنَابِلٍ نَابَالِمٍ ، وَغَازَاتٍ سَامَةٍ ،
وَأَسْلِحَةٍ كِيمَاوِيَّةٍ وَجَرْتُومِيَّةٍ تَنْشُرُ الْمَوْتَ وَالْخَرَابَ عِنْدَ اسْتِعْمَالِهَا ، وَتَشِيعُ
الذُّعْرَ وَالْخَوْفَ قَبْلَ اسْتِعْمَالِهَا (١) .

أَجَلٌ . . قَدْ اسْتَطَاعَ الْعِلْمُ أَنْ يَضَعَ قَدَمَ الْإِنْسَانِ عَلَى سَطْحِ الْقَمَرِ ، وَلَكِنَّهُ
لَمْ يَمْلِكْ أَنْ يَضَعَ يَدَهُ عَلَى سِرِّ وَجُودِهِ وَغَايَةِ حَيَاتِهِ !

لَقَدْ اكْتَشَفَ الْإِنْسَانُ بِالْعِلْمِ « أَشْيَاءَ » كَثِيرَةً ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكْتَشِفْ حَقِيقَةَ نَفْسِهِ !
أَوْصَلَهُ عِلْمُ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ إِلَى الْقَمَرِ . وَلَكِنْ لَمْ يَوْصِلْهُ إِلَى السَّعَادَةِ
وَالطَّمَأْنِينَةِ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ ! جَلَبَ مِنْ هُنَاكَ بَعْضَ الصَّخُورِ وَالْأَثَرِيَّةِ ،
وَلَكِنَّهُ لَمْ يَجِدْ هُنَاكَ مَا يُخْرِجُهُ مِنَ التَّعَاسَةِ وَالْقَلْقِ وَالضِّيَاعِ فِي كَوْكَبِهِ !

أَصْلَحَ الْعِلْمُ ظَاهِرَ الْإِنْسَانِ ، وَعَجَزَ عَنِ إِصْلَاحِ بَاطِنِهِ ، لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَنْفِذَ
إِلَى تِلْكَ « اللَّطِيفَةِ الرَّبَّانِيَّةِ » الْمُدْرِكَةِ الْوَاعِيَةِ ، الشَّاعِرَةِ الْحَسَّاسَةِ ، الَّتِي إِذَا
صَلَحَتْ صَلَحَ الْإِنْسَانُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْإِنْسَانُ كُلُّهُ ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ ،
أَوِ النَّفْسُ ، أَوِ الرُّوحُ ، سَمَّيْنَاهَا مَا شِئْنَا ، فَهِيَ حَقِيقَةُ الْإِنْسَانِ !

(١) انظر : كتاب « الأسلحة الكيماوية والجرثومية » تأليف الدكتور نبيل صبحي ،
لترى ما يحضره أعداء الإنسانية لإفناء الأحياء بسلطان العلم ومقدرة العلماء !! نشرته
« مؤسسة الرسالة » بيروت .

أعطى العلم إنسان القرن العشرين سلاحاً انتصر به على بعض قُوى الطبيعة ، ولم يعطه ما ينتصر به على نفسه : على شهواته ، وشككه ، وقلقه ، وخوفه ، وتخبّطه ، وصراعه الداخلى والاجتماعى .

لقد تقدّم الطب الحديث والجراحة إلى أقصى حدودهما فى هذا القرن ، وبدأ الأطباء يقولون : إن العلم يستطيع القضاء على كل مرض غير الموت والشيخوخة !! ولكن الأمراض تكثر وتتشعب وتنتشر بسرعة مذهلة ، ومنها « الأمراض العصبية » و« النفسية » التى هى نتائج وأعراض « التناقض » الشديد الذى يمر به الفرد والمجتمع . وسر ذلك أن العلم المادى - على سعته واكتشافاته - لم يعرف حقيقة الإنسان ، الذى عرف المادة وقوانينها ، ولكنه لم يعرف نفسه ، ولا غرو أن كتب أحد أقطاب العلم « ألكسيس كاريل » كتابه الشهير : « الإنسان ذلك المجهول » .

ومن هنا حاول العلم الحديث أن يغذى كل الجوانب المادية فى الجسم الإنسانى ، ولكنه فشل فى تغذية النفس الإنسانية مما فيها من شعور وأمانى وإرادة . . . وكانت حصيلة ذلك جسماً طويلاً القامة ، قوى العضلات ، ولكن الجانب الآخر - وهو أصل الإنسان - أصبح يعاني من أزمات لا حل لها .

لقد أكدت إحصائية : أن ثمانين فى المائة (٨٠٪) من مرضى المدن الأمريكية الكبرى يعانون أمراضاً ناتجة عن أزمات نفسية وعصبية من ناحية أو أخرى .

ويقول علم النفس الحديث : إن من أهم جذور هذه الأمراض النفسية : الكراهية والحقد والخوف والإرهاق واليأس والترقب والشك والآثرة والانزعاج من البيئة ، وكل هذه الأعراض تتعلق مباشرة بالحياة المحرومة من الإيمان بالله (١) .

(١) انظر : كتاب « الإسلام يتحدى » للأستاذ وحيد الدين خان ، وكتابنا « الإيمان والحياة » - أثر الإيمان فى حياة الفرد .

● الفلسفة ليست بديلاً عن الدين :

لقد تبين لنا أن إنسان العلم الحديث هو « ذلك المجهول » الذى لم يستطع العلم أن يسبر غوره ، وأن يتعرف على حقيقته ، وأن ينفذ إلى أعماقه ، كما بيّن ذلك « ألكسيس كاريل » و« رينيه دوبو » ، وغيرهما . لقد عرف العلم الجُمادات أو المادة ، وحلّلها واكتشف قوانينها ، ولكنه عجز عن معرفة الإنسان ، لأن الإنسان من التركيب والتعقيد بحيث لا يعرفه إلا مَنْ خلقه فسوّاه : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (١) .

وما دام العلم يجهل الإنسان ، فلا يؤمل منه أن يُحسن توجيهه وتربيته والتشريع له ، بل بدا اليوم أن العلم - وبعبارة أدق : تطبيقاته التكنولوجية - أصبح خطراً على فطرة الإنسان ، وبيئة الإنسان .

و« إنسان الفلسفة » ليس أحسن حظاً من إنسان العلم ، والفلسفة رغم اهتمامها بالإنسان - منذ أنزلها « سقراط » من السماء إلى الأرض ووجه العقل الإنسانى إلى محاولة اكتشاف ذاته : اعرف نفسك - لم تتفق على رأى فى نظرتها إلى الإنسان : أهو روح أم مادة ؟ جسم يفنى أم روح يبقى ؟ عقل أم شهوة ؟ ملاك أم شيطان ؟ الأصل فيه الخير أم الشر ؟ .. أهو إنسان كما نراه ، أم ذئب مقنّع ؟ أهو أنانى أم غيرى ؟ أهو فردى أم جماعى ؟ أهو ثابت أم متطور ؟ أتجدى فيه التربية أم لا تجدى ؟ أهو مختار أم مجبور ؟

اختلفت الفلسفات فى الإجابة عن هذه التساؤلات وتناقضت ، فلا تستطيع أن تخرج منها بطائل ، حتى قال شيخنا الدكتور عبد الحليم محمود - وهو أستاذ الفلسفة فى كلية أصول الدين - قبل أن يكون شيخاً للأزهر : « الفلسفة لا رأى لها ، لأنها تقول الرأى وضده ، والفكرة ونقيضها » .

هنا نجد الفلسفة الإلهية مناقضة للفلسفة المادية ، والفلسفة المثالية مناقضة

للفلسفة الواقعية ، وفلسفة الواجب معارضة لفلسفة المنفعة أو اللذة ، إلى آخر ما نعرفه من تناقضات فى الساحة الفلسفية ، فهذا يثبت ، وذاك ينفى ، وهذا يبنى ، وذاك يهدم .

ومن هنا لا تستطيع الفلسفة وحدها أن تهدي الإنسان سبيلاً أو تشفى له غليلاً ، أو تمنحه منهجاً يركن له ويطمئن إليه ، ويقيم حياته على أساسه .

وأبعد الفلسفات عن هداية الإنسان وإسعاده هى الفلسفات المادية ، التى تنكر أن للكون إلهاً ، وأن للإنسان روحاً ، وأن وراء الدنيا آخره . وعلى رأس هذه الفلسفات : الفلسفة الماركسية القائمة على المادية الجدلية ، والتى تتبنى مقولة بعض الفلاسفة الماديين : ليس صواباً أن الله خلق الإنسان ، بل الصواب أن الإنسان هو الذى خلق الله !!

ومثل ذلك : الفلسفات العبثية والعدمية والشكية ، فكلها فلسفات تهدم ولا تبني ، وتميت ولا تحيي .

وبين شيخنا الدكتور دراز الفرق بين الفلسفة والدين ، فيرى أن الفلسفة فكرة هادئة باردة ، أما الدين فهو قوة دافعة ، فعالة ، خلاقة ، لا يقف فى سبيلها شيء فى الكون إلا استهانت به أو تبلغ هدفها .

ذلك هو فصل ما بين الفلسفة والدين ، غاية الفلسفة المعرفة ؛ وغاية الدين الإيمان ، مطلب الفلسفة فكرة جافة ، ترتسم فى صورة جامدة ؛ ومطلب الدين روح وثابة ، وقوة محركة .

لا نقول كما يقول كثير من الناس : إن الفلسفة تخاطب العقول ؛ وإن الدين فى كل أوضاعه لا يقنع بعمل العقل قليلاً أو كثيراً حتى يضم إليه ركون القلب .

الفلسفة تعمل إذاً فى جانب من جوانب النفس ، والدين يستحوذ عليها فى مجملها . ومن هنا يستنبط فرق دقيق بين الفلسفة والدين :

ذلك أن غاية الفلسفة نظرية ، حتى فى قسمها العلمى ، وغاية الدين عملية ، حتى فى جانبه العلمى ، فأقصى مطالب الفلسفة أن تعرفنا الحق والخير ما هما ؟ وأين هما ؟ ولا يعينها بعد ذلك موقفنا من الحق الذى تعرفه ، والخير الذى تحدده . أما الدين فيعرفنا الحق لا لنعرفه فحسب ، بل لنؤمن به ونحبه ونمجده ، ويعرفنا الواجب لنؤديه ونوفيه ، ونكمل نفوسنا بتحقيقه .

ثم يبين شيخنا أن الدين حركة شعبية (ديمقراطية) عامة ، والفلسفة حركة (أرستقراطية) خاصة . فالدين يسعى بطبيعته إلى الانتشار ، والفلسفة تجنح إلى العزلة ، داعية الدين وسط الجماهير ، ورجل الفلسفة فى برجه العاجى ، فإذا رأيت فيلسوفاً يدعو إلى مذهبه فقد تغير وضعه ، وتحول فكرته إلى إيمان ، وإذا رأيت مؤمناً لا يهتم إلا بنفسه فقد استحالت نار إيمانه إلى رماد .



● تنفيذ مقولة (الدين أفيون الشعوب) :

أما دعوى الماركسيين : أن الدين (أفيون الشعوب) يفعل فى عقولها ما تفعله المخدرات بالأفراد ، ويشغلهم عن حقوقهم المسلوقة ، بأمانى الآخرة ، ويخضعهم لإرادة الظلمة والطغاة ، فيطيعونهم وهم راضون - فهى دعوى مردودة .

ذلك أن الدين الصحيح لا يُخدِّر الشعب ، ولا يلهيه عن المطالبة بحقه فى الدنيا ، استغراقاً بطلب النعيم فى الآخرة ! الدين الصحيح لا يقر الظلم ، ولا يرضى بالفساد والانحراف ، فإن صح هذا الادعاء فى شأن بعض الأديان ، فلا يصح بحال فى شأن الإسلام .

الإسلام فى الحقيقة ثورة إنسانية كبرى ، ثورة لتحرير الإنسان - كل إنسان - من العبودية والخضوع لغير خالقه . ثورة فى عالم الفكر والضمير والشعور ، وثورة فى عالم الواقع والتطبيق .

وكان عنوان هذه الثورة هي هذه الكلمة العظيمة ، كلمة التوحيد : « لا إله إلا الله » فكل مدّع أو متعاط للألوهية في الأرض ، بالقول أو بالفعل ، هو مزور لا وجود له ، ولا يستحق البقاء . وكل الذين زعموا لأنفسهم - أو زعم لهم بعض الناس - أنهم أرباب مع الله ، أو من دون الله ، يجب أن يسقطوا إلى الأبد ، ويتواروا عن مسرح الحياة .

الناس إذن سواسية ، لا يجوز أن يستعبد بعضهم بعضاً ، أو يطغى بعضهم على بعض ، فإذا ظلم بعض الناس وطغى وأفسد ، كان على الناس أن يعترضوا طريقه ، يأخذوا على يديه ، وإلا كانوا شركاءه في الإثم واستحقاق العقوبة العادلة من الله .

يقول القرآن الكريم : ﴿ وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ ﴾ (١) .

ويقول : ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (٢) .

ويقول الرسول ﷺ : « إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه أوشك الله أن يعمهم بعقاب من عنده » (٣) .

ويوجب على كل من رأى منكراً - أى ظلماً أو فساداً أو انحرافاً - أن يعمل على تغييره بكل ما يستطيع من قوة : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » (٤) .

والتغيير بالقلب - الذى هو أدنى الدرجات وأضعف الإيمان - ليس أمراً سلبياً تافهاً . إنها جمرة الغضب والكراهية للفساد والمنكر تتوهج وتتقد فى

(٢) الأنفال : ٢٥

(١) هود : ١١٣

(٣) رواه أبو داود والترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

(٤) رواه مسلم وغيره .

الجوانح حتى تجد الفرصة للتغيير بالقول أو الفعل ، باللسان أو اليد ، وأدنى ثمراته العاجلة النفور من الظلمة والمفسدين والمقاطعة لهم ، فلا يؤاكلهم ولا يشاربهم ، ولا يجالسهم ولا يصاحبهم .

وقد عَدَّ النبي ﷺ مقاومة الظلم والفساد الداخلي ، كمقاومة الغزو والعدوان الخارجي ، كلاهما جهاد في سبيل الله ، بل حين سُئِلَ : أى الجهاد أفضل ؟ قال : « كلمة حق عند سلطان جائر » (١) ، فاعتبر ذلك أفضل الجهاد وأعلاه .

فهذا دين يحرض على مقاومة الظلم حتى الموت ، ويعدّ الميت في سبيل ذلك شهيداً في سبيل الله ، بل في طليعة الشهداء المرموقين ، بجوار حمزة ابن عبد المطلب ، سيد الشهداء ، كما قال عليه الصلاة والسلام :
« سيد الشهداء حمزة ، ورجل قام إلى إمام جائر ، فأمره ونهاه فقتله » (٢) .

إن الإسلام يُربّي المسلم على الشعور بالكرامة وعزة النفس ، ويجعل ذلك من خصائص الإيمان وآثاره : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣) ، بل من خصائص الإنسانية ولوازمها : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ (٤) .

ولهذا يبرأ الإسلام من كل من يرضى لنفسه بالذل والمهانة ، ويصبر على القيد يوضع في رجليه ، أو الغل يوضع في عنقه دون أن يقاوم الظلم ، أو يحاول التخلص منه ، ولو بالهجرة إلى أرض الله الفسيحة . يقول القرآن :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ، قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ، فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ، وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ (٥) .

(١) رواه النسائي بإسناد صحيح كما في الترغيب .

(٢) رواه الحاكم والضياء عن جابر وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير .

(٥) النساء : ٩٧

(٤) الإسراء : ٧٠

(٣) المنافقون : ٨

ويرد الرسول ﷺ منطق الاستسلام الجبرى أو السلبي لأحداث الحياة ووقائع الدهر ، باسم الإيمان بالقَدَر . ويعتبر ذلك ضرباً من العجز المذموم فى دين الله . إن النبى ﷺ قضى بين رجلين ، فقال المقضى عليه لما أدبر : حسبى الله ونعم الوكيل ! فقال النبى ﷺ : « إن الله يلوم على العجز ، ولكن عليك بالكيس ، فإذا غلبك أمر ، فقل : حسبى الله ، ونعم الوكيل » (١) .

كره النبى ﷺ من الرجل أن يوارى عجزه بالحسبلة والحوقة ، بدل أن يواجه الأمر بما ينبغى له من الحكمة والتفطن . فذكر الله فى غير موضعه عجز واستسلام .

ومن هنا جاء فى وصاياه صلى الله عليه وسلم : « المؤمن القوى خير وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف . . . احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز » (٢) .

وجاء فى أدعيته التى علّمها لبعض أصحابه : « اللهم إنى أعوذُ بك من الهم والحزن ، وأعوذُ بك من العجز والكسل ، وأعوذُ بك من الجبن والبخل ، وأعوذُ بك من غلبة الدين وقهر الرجال » (٣) .

ففى هذا الدعاء استعاذة بالله تعالى من كل مظاهر الضعف التى تعترى الإنسان فتغلبه وتقهره وتذله .

ومثل ذلك ما جاء فى دعاء القنوت الذى يرويه ابن مسعود ، ويقرؤه الأحناف فى صلاة الوتر كل ليلة : « اللهم إنا نستعينك ونستهديك ونستغفرك ونتوب إليك ، ونؤمن بك ونتوكل عليك ، ونُثنى عليك الخير كله ، نشكرك

(١) رواه أبو داود برقم (٣٦٢٧) .

(٢) رواه مسلم ، والعجز : ترك ما يجب فعله بالتسوية ، والكيس ، العقل وحسن التصرف .

(٣) رواه أبو داود برقم (١٥٥٥) ، وفى سنده راوٍ لى الحديث ، ولكن المفردات المستعاذ منها ثبتت فى الصحاح .

ولا نكفرك ، ونخلع ونترك مَنْ يفجرك » . . فانظر ما تحمله هذه العبارة :
« ونخلع ونترك مَنْ يفجرك » من تحريض سافر على خلع ومقاومة كل ظالم
فاجر ، مهما تكن مكانته ومنصبه فى الناس .

فهل يقال فى مثل هذا الدين الذى يدعو إلى الثورة على الباطل والضعف
والعجز والعبودية ، ويحرّض على نُصرة الحق والقوة والحرية - إنه أفيون
الشعب : يُخدّره ويمنيه بنعيم الجنة ، ليست على مظالم حياته الدنيا ؟!!

لعل « ماركس » كان معذوراً حين قال ما قال ، لأنه لم يعرف الإسلام ،
ولم يعوف موقفه من الظلم والبغى والفساد ، مع أن المنهج العلمى كان يلزمه
ألا يصدر حكمه عاماً شاملاً إلا بعد استقراء كامل ، ودراسة تامة لكل الأديان
- أو للأديان الكبرى على الأقل - وأثرها فى الأمم على مدار التاريخ ، فإن
لم يستطع كان عليه أن يحكم على الدين الذى عرفه لا على غيره . هذا هو
مقتضى الأمانة العلمية ، والمنهج العلمى .

* * *